الدرس (٠٠٨) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فنواصل قراءتنا في هذا الكتاب كتاب رياض الصالحين لأبي زكريا النووي رَحِمَهُ اللَّهُ، ولا نزال في باب التوبة.

قال المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى:

٢٠- (وعن أبي سَعيد سَعْدِ بنِ مالكِ بنِ سِنَانٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّ نَبِيَّ الله ﷺ قَالَ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أعْلَمِ أَهْلِ الأرضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ. فقال: إنَّهُ قَتَلَ تِسعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوبَةٍ؟ فقالَ: لا، فَقَتَلهُ فَكَمَّلَ بِهِ مئَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ. فقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فقالَ: نَعَمْ، ومَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلى أرضِ كَذَا وكَذَا فإِنَّ بِهَا أُناسًا يَعْبُدُونَ الله تَعَالَى فاعْبُدِ الله مَعَهُمْ، ولاَ تَرْجِعْ إِلى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أرضُ سُوءٍ.

فانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ العَذَابِ. فَقَالتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا، مُقْبِلًا بِقَلبِهِ إِلى اللهِ تَعَالَى، وقالتْ مَلائِكَةُ العَذَابِ: إِنَّهُ لمْ يَعْمَلْ خَيرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ في صورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فقالَ: قِيسُوا ما بينَ الأرضَينِ فَإِلَى أيّتهما كَانَ أدنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أدْنى إِلى الأَرْضِ التي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحمةِ». مُتَّفَقٌ عليه.

وفي رواية في الصحيح: «فَكَانَ إلى القَريَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَجُعِلَ مِنْ أهلِهَا».

وفي رواية في الصحيح: «فَأَوحَى الله تَعَالَى إِلى هذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وإِلَى هذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وقَالَ: قِيسُوا مَا بيْنَهُما، فَوَجَدُوهُ إِلى هذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ». وفي رواية: «فَنَأى بصَدْرِهِ نَحْوَهَا»).

هذا الحديث العظيم من الأحاديث المبينة لشأن التوبة، وأنها مقبولةٌ مهما عظم الذنب، وكبر الجرم، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره، فهو يغفر الذنوب جميعًا مهما عظمت، وهو القائل جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

ولا شك أن القتل جريمة من الجرائم الكبار، وذنبٌ من الذنوب العظام، وقد قرن في القرآن بالشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان:٦٨]، فهو قرين للشرك في القرآن، ممَّا يبين غلظ هذا الذنب، وعظم هذا الجرم، بل هو أعظم ذنب عصي الله به بعد الشرك بالله.

وكيف إذا كان القتل لعدد من الأنفس بغير حق، كحال هذا الرجل الذي قتل تسعةً وتسعين نفسًا؟!

فالنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذكر حال هذا الرجل من بني إسرائيل، وكان مسرفًا في القتل، وواضح من قصته وخبره، أنه يقتل عند أدنى أمر، وعند أدنى سبب يبادر إلى القتل، فها هو الآن استفتى ذلك العابد، فأفتاه بغير ما يحب، أو بغير ما يريد، فقتله مباشرة، وأكمل به المائة.

فهذا رجلٌ من بني إسرائيل قتل تسعةً وتسعين نفسًا، وهذا ليس بالعدد الهيِّن، فسأل عن أعلم أهل الأرض، وأيضًا بحثه عن أعلم أهل الأرض، كان بحثًا موفقًا، فالأصل أن يكون البحث هكذا: عن الأعلم، والأكثر فقهًا، والأكثر درايةً في دين الله، لأن الإنسان إن سأل من لا يكون على علم ولا على بصيرة، قد يورطه في الإجابة، وقد يجيبه إجابةً غير مسددة، فبحثه عن الأعلم بحثٌ في محله، وموافقٌ للحق والصواب.

فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، أي: لم يدل على عالم.

وهذا فيه أيضًا أمريحتاج التنبه له: وهو الدلالة، أي عندما تسأل ويقال لك: هل تعرف عالمـًا، أريد أن أستفتيه، لمَّا تقول: اذهب إلى فلان، تحمَّلت شيئـًا من المسؤولية، فإما أن تدل على شخصٍ فعلًا تطمئن لعلمه، أو تعتذر، وتقول له: ابحث لعلك تجد، وتدعو الله له بالعون والتوفيق.

فمثلًا لو جاءك شخص يستفتيك في مسألة من المسائل، وأنت تعرف رجلًا من أهل العبادة دائمًا في المسجد، كثير الذكر و الصلاة، فقلت: اذهب إلى فلان في المسجد يفتيك، وهو ليس من أهل العلم، وإنما من أهل العبادة، قد يورطه ورطة فيتجرأ في الإجابة على سؤاله بإجابةٍ بموجب عبادته، وليس بموجب العلم الذي هو ليس من أهله.

قال: («**دُلَّ إِلَى راهبٍ**»): أي أرشد إلى راهب ليس من أهل العلم، وإنما أرشد إلى شخص منقطع للعبادة، ومعلومٌ أن الشخص الذي قد انقطع للعبادة، عبادته له، لكن العلم الذي يهدى به الناس ويعلمون به ، ليس عنده منه حظ ولا نصيب، وقد جاء في الحديث: «**أن فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**».

فذهب إلى ذلك الراهب في صومعته ومكان عبادته، وقال: إنه قتل تسعةً وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال له ذلك الراهب: لا.. من قتل تسعة وتسعين نفسًا ليس له توبة، وهذا كلام قاله بلا علم ولا بصيرة في دين الله.

(«**فَقَتَلهُ فَكَمَّلَ بِهِ مئَةً**»)، فكان هذا الراهب متجرئًا في الجواب، وهذا السائل أيضًا على عادته متجرئًا ومسرفًا في القتل، فكمَّل به المائة.

(«**ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرضِ**»)، أي: ما زال حريصًا على معرفة أمره وحاله، وهل له من توبة.

(«**فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ. فقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فقالَ: نَعَمْ، ومَنْ يَحُولُ بيْنَهُ وبيْنَ التَّوْبَةِ؟!**»)، أي أن باب التوبة مفتوح، في أي وقت، مهما كانت الذنوب، ومهما كانت الجرائم، ومهما كانت الأخطاء، فإن باب التوبة مفتوح، فمن تاب إلى الله صادقـًا في توبته تاب الله عليه.

(«فقالَ: نَعَمْ، ومَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ التَّوْبَةِ؟! انْطَلِقْ إِلى أرضِ كَذَا وكَذَا فإِنَّ بِهَا أُناسًا يَعْبُدُونَ الله تَعَالَى فاعْبُدِ الله مَعَهُمْ»)، وهذا أيضًا من فقه هذا العالم، ومن حسن نصحه، وجمال بيانه، وكمال توجيهه، لم يكتف فقط بأن بين له أن باب التوبة مفتوح، بل أرشده إلى المسلك المناسب والطريق الذي يعين على تحقق التوبة والثبات عليها، فأرشده إلى أن ينتقل من أماكن عصيانه ومخالفاته وأخطائه، ومن هو أيضًا مرتبط بهم من أشخاص، وتعود معهم على ممارسات وتعديات.. أن ينتقل من هذا المكان كاملًا، إلى مكانٍ أرشده إليه فيه أشخاص يعبدون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أي أهل عبادة، وأهل دين.

وهذا أيضًا يفيد: أن الذي يريد أن يتوب، لا يبقى في مكان الفسق، ومكان الفجور، لأنه سرعان ما يعود إلى سابق حاله، لكن إذا انتقل إلى رفقةٍ أخيار، وصبر على الجلوس معهم، أعانوه بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الثبات.

قال: («ولاَ تَرْجِعْ إِلى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أرضُ سُوءٍ»): أي: الأرض التي كنت فيها، ومارست فيها هذه الممارسات ابتعد عنها، وهكذا يقال للشخص الذي كان فاسقًا فاجرًا ويريد أن يتوب: لا ترجع إلى المكان الذي كنت فيه، ولا المجموعة التي كنت تجالسهم، ولا الرفقة الذين تصاحبهم، ابتعد عن هؤلاء كلهم، وعن هذا المكان كاملًا، وانتقل إلى المكان الفلاني، حيث فيه العبادة، وفيه العلم وفيه الخير.

فانطلق الرجل تائبًا عاملاً بالوصية.. أسرف وأجرم، لكنه يبحث عن التوبة والنجاة.

وهذا أيضًا نستفيد منه فائدة: أن كثيراً من المجرمين قد يكون حال إجرامه فيه في داخله شيء ينازعه، ويؤلمه على أخطائه.. وعلى إجرامه، ويود أن ينتقل من هذا الإسراف، ومن هذا الإجرام، فإذا وفق بشخصٍ يفتح له الباب، ويريه الطريق وينبهه، فإنه بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يستفيد ويتوب.

وهذا يفيدنا أهمية الدعوة إلى الله والنصح والرفق، وحسن البيان للناس في تعليميهم ودعوتهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتحذيرهم من الذنوب والخطايا.

فالرجل عمل بالوصية مباشرة، قال: («فَانطَلَقَ»)، والفاء تفيد التعقيب الفوري.

(«فانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا أتى نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ»): أي عندما قطع منتصف الطريق، توفاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(«فاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ العَذَابِ»)، لأن صاحب الإيمان والطاعة تقبض روحه ملائكة الرحمة، ومن كان بضد ذلك، تقبض روحه ملائكة العذاب.

(«فَقَالتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا، مُقْبِلًا بِقَلبِهِ إِلى اللهِ تَعَالَى، وقالتْ مَلائِكَةُ العَذَابِ: إِنَّهُ لمْ يَعْمَلْ خَيرًا قَطُّ»): أي أعماله كلها فسق وقتل وإجرام.

(«فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ -أرسل الله ملكًا- فِي صورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ - أيْ حَكَمًا يحكم- فقالَ: قِيسُوا ما بينَ الأرضَينِ فَإِلَى أيّتهما كَانَ أدنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أدْنى إِلى الأرْضِ التي أرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحمةِ»).

وذكر المصنف رحمه الله تعالى أيضًا روايات كلها حول هذا المعنى، في فضل الله عليه بقبول توبته.

وشاهد القول من هذا الحديث: أن باب التوبة مفتوح، مهما كان الجرم، ومهما عظم الذنب. ففيه مشروعية التوبة من جميع الكبائر حتى من قتل الأنفس ويحمل على أن الله تعالى إذا قبل توبة القاتل تكفل برضا خصمه يوم القيامة.

ففيه أن التوبة تنفع من القتل كما تنفع من سائر الذنوب وهو وإن كان شرعـًا لمن قبلنا وفي الاحتجاج به خلاف لكن كما قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس هذا من موضع الخلاف لأن موضع الخلاف إذا لم يرد في شرعنا تقريره وموافقته أما إذا ورد فهو شرع لنا بلا خلاف ومن الوارد في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] وحديث عبادة بن الصامت ففيه بعد قوله: «**ولا تقتلوا النفس**» وغير ذلك من المنهيات: «**فمن أصاب من ذلك شيئـًا فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وأن شاء عذبه**» متفق عليه، ويؤخذ ذلك أيضـًا من جهة تخفيف الآصار عن هذه الأمة بالنسبة إلى من قبلهم من الأمم فإذا شرع لهم قبول توبة القاتل فمشروعيتها لنا بطريق الأولى.

ومما ينبغي أن يعلم أن القتل تتعلق به ثلاثة حقوق:

الحق الأول: لله.

والثاني: للمقتول.

والثالث: لأولياء المقتول.

أما حق الله: فهو الذي دل هذا الحديث على أنه يغفر بالتوبة ودل عليه كذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

وأما حق المقتول: فإن توبة القاتل لا تنفعه ولا تؤديه حقه لأنه مات ولا يمكن الوصول إلى استحلاله أو التبرؤ من دمه فهذا هو الذي يبقى مطالباً به القاتل ولو تاب وإذا كان يوم القيامة فالله يفصل بينهما.

وأما حق أولياء المقتول: فإنها لا تصح توبة القاتل حتى يسلم نفسه إلى أولياء المقتول ويقر بالقتل ولهم الخيار في قتله قصاصا أو أخذ الدية أو العفو والمسامحة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: قاتل النفس بغير حق عليه حقان؛ حق لله لكونه تعدى حدود الله وانتهك حرماته، فهذا الذنب يغفره الله بالتوبة الصحيحة، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ أي: لمن تاب، ثم قال رحمه الله تعالى: والحق الثاني: حق الآدميين، فعلى القاتل أن يعطي أولياء المقتول حقهم، فيمكنهم من القصاص أو يصالحهم بمال أو يطلب منهم العفو، فإذا فعل ذلك فقد أدى ما عليه من حقهم وذلك من تمام التوبة، وهل يبقى للمقتول عليه حق يطالبه به يوم القيامة؟ على قولين للعلماء في مذهب أحمد وغيره، ومن قال يبقى له حق فإنه يستكثر القاتلُ من الحسنات حتى يعطي المقتولَ من حسناته بقدر حقه، ويبقى

له ما يبقى، فإذا استكثر القاتل التائب من الحسنات رُجيت له رحمة الله وأنجاه من النار، ولا يقنط من رحمة الله إلا القوم الفاسقون.

هذا ونسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يرزقنا التوبة النصوح، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا؛ إنه سميع قريب مجيب. وإلى لقاء آخر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.